**وزارة التعليم العالي والبحث العلمي**

**جامعة 8 ماي 1945 قالمة**

**قسم الفلسفة**

**ملتقى البيوطيقا: حوار جديد بين العلم والفلسفة.**

**د/ عمر بن أزواو. جامعة برج بوعريريج**

**عنوان المداخلة: البيوطيقا ومشكلات الطب الأخلاقية**

**تمهيد:**

يحمل مصطلح البيوطيقا باعتباره مصطلحا جديد الانتشار في الأوساط الفلسفية والعلمية، إذ بدأ ظهوره في سبعينات القرن الماضي دلالات مغرقة في القدم بالنظر إليه كمصطلح مركب من شقين البيولوجيا والإتيقا أو الأخلاق، وإن موضوعنا الذي نرنوا لمناقشته في هذه المداخلة والموسوم ب: " إتيقا الموت: بين الرهبة والرغبة" والذي نصبوا زحزحته إلى أصوله الأسطورية والميتافيزيقية لا يمكن أن يكون في معزل عن كل التطورات العلمية والبيولوجية والتقنية المعاصرة. ولأن سؤال الموت لا يقتصر على الجانب التنظيري بل يعد ممارسة طقوسية شعائرية منذ بدايات الإنسان ككائن يحاول تعلم فن العيش على حد تعبير جاك دريدا، ليتحول في وقتنا الحاضر إلى فعل أو لعبة إحداث فعل الموت، فإننا لا يمكن في ظل كل الزحام الهائل العلمي والتقني أن نغفل عن التساؤل في حضرة الموت عن مبرر بقاءنا أحياء نحمل وزر موت مؤجل وعن مدى تأثير ذلك على حياتنا الواقعية فكريا وأخلاقيا وسلوكيا. لهذا نتساءل دوما عن مبرر حروبنا الهامشية التي تستغل فيها كل التقنيات العلمية البيولوجية والكيميائية من إبادات جماعية بنشر الأمراض الفتاكة كوباء كورونا مثلا والمبالغة في أسعار اللقاح المضاد للوباء وظهور موجات الفزع من الموت؛ لهذا فإن الموت وما يثيره من رهبة وخوف معاصر وتشبث بالحياة نظرا للخوف من المجهول أو الخواء نتيجة لما أشاعته الفلسفة التحليلية الوضعية المعاصرة (فتجنشتين الأول وفريجة ورودولف كارناب...) ومن قبلها دعوات فريديريك نيتشة لموت الإله وأفول الميتافيزيقا يحيي من جديد الرغبة في الخلود من جهة ومن جهة أخرى الرغبة المضادة وهي الإقبال على الموت أو اختياره طوعا بأسلوب جديد للانتحار لكن بفعل الآخر، هذا الآخر المعالج أو القائم على إحداث فعل الموت لم يلق الاهتمام الائق إلا نادرا بوضعه النفسي وما يحمل من انكسار ولذة معا.

**تمهيد:**

1. **أزمنة المخاوف:**

كثيرة هي الكتب والمقالات التي نشرت في العقد الأخير من القرن العشرين، وبداية القرن الحادي والعشرين تشير إلى بداية عولمة الخوف، ففي هذه الأزمنة يجد الجنس البشري نفسه في مسار لا يمكن الاستمرار فيه، مسار يؤدي إلى كوارث مرعبة النتائج إذا لم يتم تغييره. وفي الوقت نفسه، نقوم بإظهار قدرات جديدة هائلة يمكن أن تؤدي إلى حياة أكثر إثارة وحضارات رائعة. ويمكن أن يكون هذا آخر قرن للبشرية، أو يمكن أن يكون القرن الذي تبحر الحضارة فيه نحو مستقبل أكثر روعة. وبسرعة، يجب أن تتخذ القرارات التي ستؤدي إلى هذه النتائج المختلفة جذريا. وتعتمد هذه القرارات على كوننا قادرين على فهم خيارات القرن الحادي والعشرين، والتفكير منطقيا بمستقبلنا والقيام جماعيا بعمل معقول.[[1]](#footnote-2)

إن الخوف هو الاسم الذي نسمي به حالة اللايقين التي نعيشها، وهو الاسم الذي نسمي به جهلنا بالخطر، وبما يجب فعله لمنع الخطر، وبما يمكن فعله لمنعه وبما لا يمكن فعله، أو بما يمكن فعله لصدّه إذا لم يكن لنا طاقة بمنعه.والأفظع من ذلك كله هو الانتشار الواسع للمخاوف، فهي تتسرب من كل شبر من بيوتنا وكوكبنا: من الشوارع المظلمة، ومن شاشات التلفزيون البراقة، ومن غرف نومنا، ومن مطابخنا، ومن أماكن عملنا، ومن قطارات المترو التي نركبها ذهابا وإيابا، ومن الناس الذين نقابلهم، ومن الناس الذين عجزنا عن ملاحظة وجودهم، ومن أطعمة أكلناها، ومن أشياء لمسناها، ومن الطبيعة (القادرة على تدمير بيوتنا وأماكن عملنا، وعلى التهديد بتدمير أجسادنا، حيث تنتشر الزلازل والفيضانات والأعاصير، والانهيارات الطينية، والجفاف، والموجات الحارة)، أو من أناس غيرنا (قادرين على تدمير بيوتنا وأماكن عملنا، وعلى التهديد بتدمير أجسادنا، حيث تنتشر في أية لحظة الأعمال الوحشية الإرهابية، وجرائم العنف، والاعتداءات الجنسية، والطعام السام، والهواء الملوث أو الماء الملوث). يقول "كريج براون" في تأريخه لفترة التسعينيات [من القرن العشرين]: "في كل مكان ترتفع درجة حرارة التحذيرات العالمية، وكل يوم تظهر تحذيرات عالمية جديدة من الفيروسات القاتلة، والموجات القاتلة، والمخدرات القاتلة،

المقاربة الإيكولوجية الأخلاقية بمختلف ألوانها، سعت إلى تأسيس خطاب إيكولوجي عميق، يتجاوز ضحالةاختيارات المجتمعات الصناعية في معالجة الأزمات البيئية، ويراجع الطرق التقليدية للفلسفة الغربية ونموذجها الإرشادي المعرفي الحداثي، بغرض تطوير بدائل فلسفية كفيلة بصياغة مُثل أخلاقية جديدة، تستجيب لمستجدات الإنسان المعاصر، وتعيد تقييم المحيط البيئي، بناء على منطلقات تروم التوازن الطبيعي وفق منطق تعاقدي طبيعي خلاق، يضمن التقدير العادل والشمولي لكل الموجودات

لكن هذا التصور الجوناسي لا يعني أنه أعلى من شأن النظم الاستبدادية التي تكون فيها السلطة والسيادة في يد شخص واحد إنما يرى أن الحرية والديمقراطية نظام مرغوب فيه لنه يكفل تحقيق الحاجيات الأساسية المادية منها وغير المادية للجميع، لكن ينبغي أن يكون ذلكفي إطار قانوني، لأن القانون هو الذي يحكم أنانية الإنسان ويجعله يمشي وفقا لما تقتضيه إرادة الحاكم وليس الشعب، وبالتالي فهو يفض أن يكون الحكم والسلطة السياسية في يد حاكم واحد يكون هو الوصي على المحكومين، لا أن يكون الحكم في يد الشعب، الذي هو بطبيعة الحال ووفقا لطبيعته وفطرته سيسخر هذا الحكم والقرار لصالح حاجاته الخاصة.

والمسيحية خصوصا في نسختها الغربية، هي الديانة الأكثر تمركزا حول الإنسان. التي عرفها العالم، وهي- بالتعارض المطلق مع الوثنية القديمة وديانات آسيا- لم تؤسس ثنائية وتعارضا بين الإنسان والطبيعة فقط، بل وألحت على أن إستغلال الإنسان للطبيعة ناتج عن إراده الله، وأن نزع القداسة عن الطبيعة في الإنجيل هو واجب مقدس يدخل ضمن مخطط إلهي. والتراتب المصرح به في النصوص المذكورة سابقا، أي سمو الإنسان على بقية المخلوقات وخلق الله للإنسان على صورته، قدم تبريرا لسلوك الإنسان تجاه الطبيعة ولهيمنته عليها، شرعية لمكانته المميزة وسط الكون، شرعية أدت إلى موقف (متغطرس) تجاه الطبيعة. وهكذا تبقى مقاربات هانس يوناس الأخلاقية في فلسفة البيئة من أهم المقاربات في هذا المجال، وذلك لدورها الرائد في إثارة وتنبيه وعي معظم المشتغلين والمهتميــن بفلسفات البيئة.

1. **موقف مُلتبس:**

وتأتي العلمانية كوجه أساس من الإنسانية، لكن أصبح الإيمان بها مُشابهاً لما انتقدته من الإيمان بالأديان أو الموروثات العقلية الغيبية ـ تستشهد المؤلفة بفرويد وتحذيره من الإلحاد المتعصب في كتابه «مستقبل وهم» ـ فالإيمان الخرافي هو نفسه بالضبط اليوم الإلحاد المتطرف الذي يدافع عنه ريتشارد دوكينز. فالعلم المحتفى به اليوم ليس محصناً ضد الخطابات والممارسات القومية والعنصرية، لذا يجب مقاومة أي ادعاء بالنقاء والموضوعية والاستقلالية العلمية مقاومة شديدة. فكونك علمانياً يجعلك متواطئاً مع المواقف الاستعمارية الغربية الاستعلائية الجديدة، بينما يكون رفضك لإرث التنوير، متناقضاً بطبيعته مع أي مشروع نقدي.. إنها دوامة خانقة. وبالبطع نتأكد من هذه المعضلة عندنا في الشرق، حيث يبدو أي صوت تنويري مرادفاً للعمالة الغربية والاستعمار، وما شابه من قائمة الاتهامات المعهودة.

وتعود المؤلفة لتوضح في ظل هذه الأزمة أن «ما بعد الإنسانية» هي.. اللحظة التاريخية التي تمثل نهاية المعارضة بين الإنسانية ومناهضة الحركة الإنسانية، وتتبع نهجاً حوارياً مختلفاً يتطلع بإيجابية أكثر نحو بدائل جديدة. وترى أن الحل أو أن هذه البدائل تتمثل في مفهوم (أوروبا البدوية) أو (التحول إلى الأقلية) أي.. مقاومة القومية وكراهية الأجانب والعنصرية، وهي العادات السيئة لأوروبا الامبراطورية القديمة، ذلك من خلال اتخاذ موقف حازم ضد متلازمة (أوروبا الحصن) وإحياء التسامح بوصفه أداة للعدالة الاجتماعية.

من ناحية أخرى يتمثل مصطلح (أوروبا البدوية) هذا بأن تتحول أوروبا إلى أقلية، أي.. رفض الدور التبشيري الذي خصصته أوروبا لنفسها، باعتبارها مركزاً مزعوماً للعالم. وفي الأخير لا تنفي المؤلفة أن فكرتها هذه قد تبدو خيالية، إلا أنها استباقية لاختلاق رؤى ومشاريع بديلة للأزمة القائمة بالفعل.

1. **هاجس سلطة التقنية:**

لم يكن النقاش الفكري المفتوح الذي طال بعمق المسائل البيولوجية والطبية والأخلاقية معزولاً عن المأزق الذي خلفه الهاجس التقني، هذا الأخير دفع العلماء والفلاسفة إلى إثارة مختلف المساءلات حول مشروعية الحرص على التوجيه العقلاني السليم لمسار العلم، وعدم الوقوع في فخ استباحة العمل العلمي التجريبي بعيداً عن أصول التطاول على الطبيعة الانسانية واختراق هوية الكائنات الحية، والتحذير المتزايد من التقنية وانعكاسها السلبي على مستقبل الكائنات الحية بعامة والوجود الانساني بصفة خاصة.

ومن ناحية أخرى، قد تبين أنه وجود إحساس عام لدى العلماء والفلاسفة ورجال الدين بضرورة تكثيف مشاغلهم وهمومهم الفكرية حول امكانية انعاش الجدل العلمي والأخلاقي الذي يدخل في سياق معرفة حدود التقنية، والتصورات التي تصل إليها قناعة العلماء الذين يشتغلون في حقل التجريب حين تتعاظم إرادتهم حول عصرنة الخطاب العلمي وتكييف الممارسات التقنية حيال التطورات التي تحصل على المستوى البيولوجي والطبي .

إن وجوب اعادة النظر في المشكلات التي يواجهها العلماء تحدث أثناء الانتقال من المستوى النظري إلى المستوى التطبيقي والذي يتصل بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالحياة الانسانية، وما يقتضيه محتوى المناهج العلمية في البحث عن قيمتها وحدود المعارف العلمية المستخلصة من التجارب التي تقام على الحياة الانسانية، فتسعى إلى تجسيد رؤية نقدية ابستيمولوجية موجهة أساساً إلى وجود بعض الاعتراضات التي تمس العمق التقني في تطبيقاته العلمية المتعددة، إذ " يسترشد العلم الناضج بنموذج علمي وحيد والنموذج العلمي يحدد معيار النشاط داخل الميدان العلمي الذي يحكمه. إنه يقوم بتنسيق وتوجيه أعمال المشتغلين بالعلم السوي الذي يعمل على حل "الألغاز"داخل المجال الخاص به"[[2]](#footnote-3)1، ولا يتعدى إلى غيرها دون معرفة حدوده، لهذا كانت الدعوة إلى ربط التقنية بالأخلاق وبالواقع مسألة مشروعة، لهذا يقول "فرانسوا داغوني":" إننا نعتقد بالفعل أنه في استطاعة الفيلسوف بل ينبغي عليه أن يأخذ هذا الدور، حتى ينسف هذه الذرائع ويعيد النظر في نتائج هذه التطبيقات"[[3]](#footnote-4)2 ، التي خلقت رعباً كبيرا حول مستقبل البحوث التجريبية من دون تقييدها بغطار أخلاقي ملائم لها .

لهذا ساد الاعتقاد أن تطبيق التقنية دون الوعي بتداعياتها، قد تنجر عنه أخطار كبيرة ومعضلات صعبة لم يتوقعها العلماء منذ البداية، وهو الاستسلام لإرادة صارمة للقيام بالتجارب دون مراعاة أي سلم أخلاقي، وجنوح التقنية إلى التطبيقات الواقعية التي فرضتها عنوة على الجوانب البيولوجية والتي تمس الكائنات الحية بما في ذلك الانسان، لهذا "وصف العقل الأداتي بوصفه دليلا على ظاهرة التمركز حول العقل التقني التي أرساها المجتمع الحديث"[[4]](#footnote-5)1 ، كنمط يحدد الوجهة الحضارية للمجتمعات المتقدمة في صناعة التطور المادي والفكري وتجسيد شعار الوفاء لإرادة المعرفة التي سوف تتحول مع مرور الزمن إلى إرادة القوة.

ولدعم الطابع الأنثروبولوجي للتقنية يعمد المفكرون إلى تقديم حجتين: الأولى منها تجزم بأنها مؤسسة على العلوم الطبيعية الحديثة، والثانية، تعد إحدى تطبيقاتها الملموسة، فلقد أصبحت هذه العلوم بفضل اختراعاتها الخارقة إحدى أبرز الفتوحات الإنسانية التي جعلت التقنية تنتمي للحضارة ومشروع الأنسنة، ولا يمكن تقييمها إلا بربط مساهمتها في تطوير الثقافة الإنسانية في مجال البحوث الحيوية، " لأن العلم والتقنية يجب اعتبارهما كنمطين لترقية نشاطهما وبتأثير أحدهما في الآخر عندما يتعلق الأمر بطرح المشكلات أو بتقديم الحلول الممكنة"[[5]](#footnote-6)2، فهذه العلاقة القائمة بينهما، تسهم بشكل أو بآخر في ترقية الأداء التجريبي السليم.

إذا كان النشاط العلمي يستهدف الحقيقة بدافع المعرفة، ودفع سبل التقنية إلى حدودها القصوى، فهذا الفضل يعود إلى استراتيجية تغيير وضعية الانسان وفي ترقية تفكيره وانتقاله من مرحلة الفكر اللاعلمي إلى مرحلة الفكر العلمي الممنهج، وبناء مجموعة من القوانين ومعرفة الظواهر الطبيعية المحيطة به، وتخطي الحالة الدينية والميتافيزيقية إلى المرحلة الوضعية على حد تعبير "أوجست كونت"، في الوقت الذي أصبح فيه "العلم يهذب العقل ويعلمه"[[6]](#footnote-7)3 بلغة "غاستون باشلار".

1. - جيمس مارتان، معنى القرن الحادي والعشرين، ترجمة أحمد رمو، د ط، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011، ص 13. [↑](#footnote-ref-2)
2. 1 - آلان شالمرز: نظريات العلم، ترجمة الحسين سحبان وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1991.ص 96. [↑](#footnote-ref-3)
3. 2 - François Dagognet , Le vivant, éditions, Bordas, Paris, 1988, p.164. [↑](#footnote-ref-4)
4. 1 – هابرماس التقنية والعلم كايديولوجيا ، ترجمة، إلياس حاجوج، وزارة الثقافة ، دمشق سوريا، ط1، 1999، ص 88. [↑](#footnote-ref-5)
5. 2 - G.Conguilhem, connaissance et vie, Ed, Vrin, Paris,1967, p. 125. [↑](#footnote-ref-6)
6. 3 - Gaston Bachelard: la philosophie du non, PUF, 4éd, Paris, 1994, p.29. [↑](#footnote-ref-7)